

الكتاب الثاني
في عصر بني أمية

الفصل الأول

مراكز الشعر الأموي

١

المدينة ومكة

لا نصل إلى عصر بني أمية حتى تصبح المدينة ومكة مركزين مهمين من مراكز الشعر ، وحتى تتحضّر تحضراً واسعاً ، وإذا كانت المدينة فقدت في هذا العصر أهميتها السياسية ، إذ تحولت عنها الخلافة إلى الكوفة في عهد علي ثم إلى دمشق منذ معاوية فإنها ظلت تحتفظ بالتراث الديني ، كما ظلت مستقرّاً لأكثر طوائف المجتمع العربي رقة ودمائة . وهيات لذلك عوامل مختلفة من الثراء الواسع وما دخلها من عناصر أجنبية كثيرة أسرعت بها إلى التحضر ، بل إلى الترف البالغ ، أما الثراء فرجعه إلى ما خلفه فيها الصحابة الأولون لأبنائهم من أموال جلبوها من الفتوح ، فقد رجعوا إليها بحمول الذهب والفضة والجواهر ، وابتنوا القصور وبالعوا في تجميلها وزخرفتها^(١) ، وقام لهم على خدمة هذه القصور الرقيقُ الأجنبي الذي اجتلبوه ، وكان كثيراً كثرة مفرطة ، حتى ليُروى عن الزبير بن العوّام مثلاً أنه خَلَّف وحده ألف عبد وأمة^(٢) . ومنذ أن دوّن عمر الدواوين كان يُفترَض لأهلها الأعطيات الكثيرة ، وكان الأمويون يُغْدِقون عليهم إغداقاً^(٣) ، استرضاء لهم ، حتى يصرفهم عن التفكير في الخلافة .

كل ذلك أعدّ لأن تعيش المدينة في هذا العصر عيشة دعة ، إلا فترة قصيرة هي الفترة التي انتقضت فيها على يزيد بن معاوية ، وقد دفعت ثمن هذا

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي (طبعة . (٣) الفخرى ص ١٢٧ واليعقوبي ٣٥٨/٢
باريس ٢٥٤/٤ .
والأغاني ٢٢/٧ .

(٢) نفس المصدر ٢٥٤/٤ .

الانتفاض باهظاً في موقعة الحرة سنة ٦٣ للهجرة ، وكأن ذلك كان سحابة عارضة في سماءها لهذا العصر ، فبمجرد انقشاع تلك السحابة خلدت إلى صفو الحياة ونعيمها ، ولم يعكّر عليها هذا الصفو والنعيم شيء ، فقد تجنّبت السياسة ، ونقرأ في أخبار أهلها فنجدهم ينعمون بألوان الطعام المختلفة^(١) رافلين رجالاً ونساء في الثياب الحريرية^(٢) وأنواع الطيب والعطور^(٣) ، وبالغ النساء خاصة في اتخاذ صنوف الحلوى والجواهر^(٤) .

وطبيعي أن يكثر في هذا المجتمع المتحضر المترف الشبابُ العاقل الذي يريد أن يقطع أوقات فراغه الطويل في لهو برىء ، وسرعان ما قدّم له الرقيق الأجنبي ما يريد من هذا اللهو ، إذ عُنى بالغناء عناية بالغة ، عناية استحدثت في أثنائها نظرية الغناء العربية التي نقرأ رُقمها في كتاب الأغاني تالية للأصوات أو كما نقول اليوم الأدوار ، وقد جعلوها ستة ضروب ، هي الثقيل الأول والثقل الثاني وخفيف الثقل والرّمْل وخفيف الرمل والمزج ، وميّزوا مَجْرَى الصوت فيها بحسب الأصابع ، فقالوا مثلاً : ثقل أول بالوسطى وخفيف ثقل بالسبابة وخفيف رمل باليسنصر .

واكتمالُ هذه النظرية على أيدي الرقيق الأجنبي يؤكد أنها تأثرت تأثراً واسعاً بألحان الروم والفرس ، وليست المسألة مسألة افتراض فإن كبار المغنين الأولين في المدينة يؤثّرُ عنهم أنهم كانوا يغنون الغناء الفارسي بجانب غنائهم العربي^(٥) ، وكان هناك من يَشْخَصُ إلى الشام فيتعلم ألحان الروم^(٦) . على أنه ينبغي أن لا نظن من ذلك أن نظرية هذا الغناء العربي نُقلت نقلاً عن الأجانب فقد تأثرت بغنائهم ، ولكنها استوت في صورة عربية مستقلة . وما يؤكد ذلك أن مصطلحاتها جميعاً عربية وأن من قاموا عليها من الرقيق الأجنبي ولّدوا في بلاد العرب جميعاً ، ما عدا نشيطاً الفارسي . وكانت العادة أن يبدأوا

(١) ابن سعد (طبعة أوروبا) ١٢٦/٤ . ٢٧٨ .

(٢) ابن سعد ٣٥٢/٨ والأغاني ١٢/٦ . (٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٨/١ ، والمعارف ص ٢٧٤ والأغاني ٣١٠/١ . ٣٢١/٨ .

(٣) أغاني ٢٦٢/٩ . (٦) أغاني ٣٧٨/١ .

(٤) ابن سعد ٣٤٣/٨ وأغاني ٢٧٣/٨ .

بالغناء العربي ، ثم يرحلوا إلى بلاد الفرس والروم فيأخذوا عنهما غناءهم ، ويُدخلوا ألحانه في غناء العرب . وبما يدل على ما نزع من أكثر الآلات الموسيقية التي يتردد ذكرها في هذا العصر نديم مثل الصنّج والمزهر والقضيب والدفّ والطبل والمزمار ، وحتى آلات العود والطنبور عُرِفَت في العصر الجاهلي .

على كل حال نهضت المدينة في هذا العصر بفن الغناء نهضة واسعة ، وشاركتها في ذلك مكة كما سئرى بعد قليل ، ولا نغلو إذا قلنا إن البلدين جميعاً لم تُبْقيا إلا قليلاً للعصور التالية كمن تضيفه إلى نظريته التي استحدثتها . وقد أقبل أهل المدينة على هذا الغناء إقبالاً شديداً ، يشترك في ذلك عامةهم وخاصتهم وعبيّادهم وزهادهم ^(١) وقضاتهم ^(٢) ، حتى لتؤثّر عن عمر بن عبد العزيز أصوات تغنى بها في إمارته لهم ^(٣) . وكان من أشرافهم من جعل داره أشبه بفندق للمغنين والمغنيات ، على نحو ما هو مأثور عن عبد الله بن جعفر وقصّد الناس لداره يسمعون بها ألوان الغناء ^(٤) ، وقد تخرج في هذه الدار كثيرون من المغنيات والمغنين المطربين .

ومن كبار المغنين الذين اشتهروا بالمدينة في هذا العصر طوئس وهو أول من تغنى بها الغناء المتقن ^(٥) وأول من صنع الهزج والرمل في الإسلام ^(٦) ، وسائب خائِر مولى ابن جعفر وهو من نقلوا ألحان الفرس إلى الغناء العربي ^(٧) ومعبّد وهو إمامهم في الغناء غير منازع ، وابن عائشة ومالك الطائي وعطرّد ويونس الكاتب ويُنسب إليه أول كتاب في الغناء والأغاني ونسبها إلى أصحابها . ومن أشهر المغنيات عزة المسيلاء وجميلة وسلامة القسّ وحبابة وسلامة الزرقاء .

ولعل من الطريف أن نعرف أنه كانت هناك دور مخصصة للسمع يفد عليها شباب المدينة كل ليلة ، وأشهر هذه الدور دار جميلة ، وكانت تكتظ

(١) أغاني ٢/٢٣٨، ٤/٢٢٢، ٨/٢٢٤ . (٥) أغاني ٣/٢٩ .

(٢) أغاني ٨/٢٧٧ . (٦) أغاني ٤/٢١٩ .

(٣) أغاني ٩/٢٥٠ . (٧) أغاني ٨/٣٢١ .

(٤) المسعودي ٥/٣٨٥ .

بالمغنين والمغنيات ، ويَعُدُّ أبو الفرج منهم في أغانيه عشرات^(١) ، ويقصّ علينا أخباراً كثيرة عن هذه الدار ، نعرف منها ما أصاب الغناء في المدينة من رقي وازدهار ، إذ كانوا يتغنون الغناء المصحوب بالجووقات الكبيرة^(٢) ، والآخر المصحوب بالرقص والضرب على الآلات الموسيقية الكثيرة^(٣) . وكانت جميلة أحياناً تقوم باستعراض كبير يضم أشهر المغنين والمغنيات لا في المدينة فقط ، بل أيضاً في مكة^(٤) ، ويُقال إنها أرادت الحج فخرجت في مهرجان ضخم من المغنين والمغنيات ضمّ نحو عشرين مغنياً وخمسين قينة^(٥) .

وعلى هذا النحو عاشت المدينة في هذا العصر لفن الغناء تنمّيه وترقيه ، ورقّيه إنما هو رمز لما أصاب مجتمعتها من تحول وتطور وتحضر ، ولما أخذ به من أسباب الرّفعة والنعيم . وكان يلتقى في هذا المجتمع كثير من الطفيليين وأصحاب الفكاهة والتندير ، واشتهر من بينهم أشعب ، وكان ماهراً في لإضحاك معاصريه لا بنبكته ونوادره فحسب ، بل أيضاً بإشارات وحركاته . وتطفّح كتب الأدب بدعاياته وفكاهاته^(٦) .

ولم في هذا المجتمع كثيرات من النساء قدنّ المرح فيه والظرف وعملن على تهذيب الأذواق ، نذكر من بينهن السيدة سُكَيْيْنَةُ بنت الحسين ، وقد ترجم لها أبو الفرج في أغانيه ترجمة^(٧) ، صور فيها جمالها وبهاءها وقارها وأخذها بأسباب الزينة حتى إنها عُرِفَتْ بتصفيف الجمّة شعرها كانت النساء يقلدنّها فيه ، بل كان من الرجال من يحاكيها في جُمّتها . وكانت ظريفة مزاحمة ، وكثيراً ما كان يختلف إليها أشعب لإضحاكها . وكانت تَفْسَحُ في مجالسها للرجال وللمغنين والمغنيات وللشعراء ، وكثيراً ما كانت تفاضل بينهم .

نحن إذ ذلّ بلازاء مجتمع متحضر اكتملت له كل الأسباب كي يمرح أهله مرحاً بريئاً ، مرحاً قوامه الغناء والدعابة والدوق الراقى المهدب . ولعلنا الآن نفهم

- | | |
|-----------------------------|--|
| (١) أغاني ١٨٦/٨ وما بعدها . | (٦) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة الساسي) ٨٣/١٧ . |
| (٢) أغاني ٢١٨/٨ ، ٢٢٧/٨ . | (٧) أغاني (طبعة الساسي) ١٥٧/١٤ . |
| (٣) أغاني ٢٢٦/٨ . | وما بعدها . |
| (٤) أغاني ١٨٨/٨ ، ٢١١/٨ . | |
| (٥) أغاني ٢٠٩/٨ . | |

حزن أبي قَطيفة الأموي على فراق هذا المجتمع حين نفاه ابن الزبير هو وغيره من الأمويين إلى دمشق ، فقد أخذ يبكي بلدته في شعر مؤثّر ، مقارناً بينها وبين دمشق . ولانقرأ هذا الشعر حتى نحس كأنه طُرد من فردوسه الأرضي ، يقول^(١) :

الْقَصْرُ فَالْتَحَلُّ فَالْجَمَاءُ بَيْنَهُمَا أَتَمَّهِى إِلَى الْقَلْبِ مِنْ أَبْوَابِ جَبْرُونَ
ويقول^(٢) :

أَقْطَعُ اللَّيْلَ كُلَّهُ بِاِكْتِثَابٍ وَزَفِيرٍ فَمَا أَكَادُ أَنْامُ
إلى أشعار كثيرة^(٣) تصور رقة حسه وحنينه بل لهفته على الحياة الهنيئة في مسقط رأسه ، مما جعل ابن الزبير يعفو عنه ويأذن له في الرجوع .
وفي هذا الجو الرقيق الذى زخر بالغناء والمرح نهض الشعر في المدينة نهضة واسعة . وقد تعاونت على هذه النهضة عناصر كثيرة من الأنصار وممن هاجر إليهم من قريش وغيرهم وممن تعرّب في بلدتهم من الموالى وأبنائهم تعرباً تاماً . ويستطيع القارئ أن يرجع إلى كتاب الأغاني حيث يجد أبا الفرج يترجم لكثرة غامرة من شعراء المدينة لهذا العصر ، وممن ترجم له من الأنصار عبد الرحمن ابن حسان وابنه سعيد والنعمان بن بشير والسريّ بن عبد الرحمن والأحوص بن محمد ، وترجم من قريش لعبد الرحمن بن الحكم وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وجعفر بن الزبير والحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وترجم من حلفائهم للفقيهين المشهورين عروة ابن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ثم ابن أرقطة وابن هرمة . ومن ترجم لهم من الموالى موسى شهوات وأخوه إسماعيل بن يسار النسائي ، وكان له ولدان شاعران هما محمد وإبراهيم . ووراء هؤلاء الشعراء كثيرون ذكرهم أبو الفرج عرضاً .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١/١ ، (٢) أغاني ٢٩/١ .
(٣) أنظر ترجمته في الأغاني ١٢/١ وما بعدها .
الجماء : أرض بها . جبرون : دمشق .

وإذا أخذنا نقرأ في شعر هؤلاء الشعراء وجدنا جمهوره يتجسّر في الحب والغزل ، وهو شيء طبيعي ، دفعت إليه حياة الشباب المترف في المدينة ، كما دفع إليه فن الغناء الجديد . وحقاً بقيت بقية من الهجاء عند عبد الرحمن بن الحكم وعبد الرحمن بن حسان ، إذ أدارا معركة هجاء عنيفة^(١) ، ولكن هذه المعركة انتهت بهما ، ولا تَبَقَى بعد ذلك إلا سهام ضئيلة تظهر من حين إلى حين . وبقيت بقية أوسع من المديح ، إذ كان بعض الشعراء يمدح بنى أمية طلباً لنوالهم ، على نحو ما نجد عند الأحوص^(٢) وموسى شهوات^(٣) ، وأخيه إسماعيل بن يسار^(٤) . والمديح والهجاء جميعاً ليسا هما اللونين اللذين غلبا هناك على الشعر والشعراء . وفي الحق أن من يبحث عن هذين اللونين ينبغي أن يتجه ببصره إلى العراق أو إلى الشام ، أما في المدينة فكانا يسقطان على هامش شعر الغزل الذي كان يتفق وترف البيئة والذي كان يطلبه المغنون والمغنيات ليضعوا فيه أغانيهم الجديدة . ومن ثمّ طبع هذا الغزل بطوابع غنائية قوية ، إذ كان في حقيقته أغانيّ تُصَحَّبُ بالغناء والعزف على الآلات الموسيقية . ونستطيع أن نلاحظ هذه الطوابع في جوانب كثيرة من حيث الكمّ ومن حيث الكيف ومن حيث الوزن ، فأما من حيث الكم فهو في مجموعه مقطوعات لا قصائد طويلة ، وهو من حيث الكيف لا يقف عند الأطلال إلا نادراً إنما يقف عند حكاية الحب وتحليل خواطر الشاعر إزاءه ، أما من حيث الوزن فإن الشعراء مالوا — تحت تأثير الغناء — إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة حتى يتيحوا للمغنين والمغنيات أن يحملوا شعرهم ما يريدون من ألحان وأنغام جديدة . وكثيراً ما نجد مغنياً يضع لحناً ويطلب إلى شاعر أغنية يوقعها عليه^(٥) ، وكان بين الشعراء من يُحَسِّنُ وضع الألحان على شعره مثل عروة بن أذينة^(٦) ولا نصل إلى أواخر العصر حتى نجد من بين المغنين والمغنيات من يحسن نظم الشعر مثل أبي سعيد مول فائد وسلامة القسّ . وقد ترجم لهما صاحب الأغاني .

وإذا تركنا المدينة إلى مكة وجدناها تتطابق معها في كل ما وصفناه من

-
- (١) أغاني (سأسي) ١٣/١٤٤ . (٤) أغاني ٤/٤٠٨ .
 (٢) أغاني (دار الكتب) ١/٢٩٧ و ٤/٢٤٨ . (٥) أغاني ٢/٢٣٨ وطبعة السأسي ٢١/١٠٧ .
 (٣) أغاني ٣/٣٦٥ . (٦) أغاني (سأسي) ٢١/١٠٩ .

مظاهر الحياة والحضارة وفن الغناء الجديد وما اتصل بذلك من شيوع شعر الحب والغزل. وكانت مثلها تغرق في ثراء واسع ورثة الشباب عن آبائهم ، وقد ورثوا عنهم كثيراً ، ورثوا ما كان في حجبهم من أموال التجارة في العصر الجاهلي ، ومعروف أن قوافل مكة كانت تحلُّ محل قناة السويس في عصرنا ، إذ كانت تنقل السلع بين حوض المحيط الهندي وحوض البحر المتوسط ، وانضافت إلى هذه الأموال أموال الفتوح الإسلامية وما فرض لأهلها من أعطيات ووراثت في دواوين الخلافة وما قسم فيهم الأمويون دائماً من أموال ، وكان الحج يُقَى عليهم كل سنة بما يسدُّ خِلَّة كل محتاج .

فكرة لم تكن نقلٌ في هذا العصر ثراء عن المدينة ، وهو ثراء استتبع بناء القصور المشيدة التي تختال جمالا وبهاء ، وقد بنى معاوية لنفسه فيها دوراً لُقِّبَتْ « بالرقط » لاختلاف ألوانها أحضر لها بشائين من الفرس^(١) ، ومع ذلك كان إذا حج وقف مبهوراً لآراء بعض قصورها الأخرى^(٢) . ومعروف أنه اتسع فيها بناء القصور والدور اتساعاً كبيراً لعهد عبد الله بن الزبير حين اتخذها مقراً لخلافته^(٣) . وقد عُنِيَ كثير من الخلفاء ومن ولاتها الذين أشرُوا في الفتوح باستنباط العيون فيها وغرس النخيل والأشجار في ضواحيها^(٤) من ذلك ما يروى عن سليمان بن عبد الملك من أنه أراد أن يحج فكتب إلى خالد القسري عامله عليها أن يُجْرى له عينا إلى الكعبة من الماء العذب ، فصنع بركة في أصل « تبير » بحجارة منقوشة ، وأسال منها الماء إلى المسجد الحرام في قصب من رصاص انتهى بفواره تسكب الماء في نافورة رخام بين الركن وزمزم^(٥) .

ولم تغرق مكة في دور وقصور وعيون فحسب ، بل لقد أخذت تغرق إلى آذانها في الترف والتعيم . فإذا نفر من أهلها يأكلون ويشربون في صحاف الذهب والفضة^(٦) ، ونفر يلبسون مقطعات الخرز والسندس والديباج والحلل المشاة

ص ١٦٤ و الأزرق ١/٤٤١ وما بعدها .

(٥) البيهقي (طبعة أوروبا) ٣٥١/٢ .

(٦) أغاني ٥/٦٦ .

(١) أغاني ٣/٢٨١ .

(٢) أغاني ١/٢١١ .

(٣) الأزرق ١/٣٩٢ .

(٤) المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن)

على كل لون^(١) ، والطيب وأنواع العطور تفوح منهم^(٢) . وبالغ النساء في ذلك كله وفي اتخاذ الحلى وصنوف الجواهر^(٣) .

واكتظت مكة - كما اكتظت المدينة - بالرفيق الأجنبي الذى نهض بحاجات أهلها في مطاعهم وشاربهم وتوفير كل أدوات ترفهم . وكان من أهم ما نهض به الرفيق من الغناء ، ونحس ضرباً من التعاون الوثيق بين أصحاب هذا الفن في مكة وأصحابه في المدينة . فهم دائماً يلتقون ، حتى ليخيل إلى الإنسان كأنما كانت إحدى البلديتين ضاحية للأخرى . وكل مغن يحاول أن يبلغ من إتقان هذا الفن مبلغاً بعيداً يستهدى فيه ذوقه وما قد يكون عرفه من ألحان الفرس والروم ، ومن مقدميهم وكبارهم في مكة ابن مسجج الذى اشتهر بأنه أول من غنى الغناء المتقن ، وأنه « نقل غناء الفرس إلى غناء العرب » ، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبربطية والأسطوخوسية ، وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلم الضرب ، ثم قدم إلى الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى منها ما استقبحه من النبرات التى هى موجودة في نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنى على هذا المذهب ، فكان أول من أثبت ذلك ولحنه وتبعه الناس بعده^(٤) . وعن هذا الأستاذ المبدع أخذ المغنون والمغنيات في مكة ، ومن أنبهم وأشهرهم ابن محرز ، وهو أول من غنى الرَّمَل^(٥) ، وابن سُرَيْج وقد رحل إلى المدينة فأخذ عن طُوَيْس وغيره من مغنيها^(٦) ، وكان أول من ضرب على العود الفارسي بالغناء العربى ، والغريزى وكان لا يُسَحِّقُ في الندب والنياحة ، والأبجر ، والهذلى . ومن مغنيات مكة سَمِيَّة ، وبَغُوم وأسماء وكانتا مولاتين لابن أبى ربيعة . ومكة إن لم تُعَرَفْ بدار كبيرة كدار جميلة في المدينة فإن دار كل مغن فيها كانت تُعَدُّ نادياً من نوادى الغناء .

وعلى نحو ما رأينا أهل المدينة يُشَغِّفون بالغناء شغفاً شديداً كان أهل

(١) أغاني ٦٤/٥ . (٤) أغاني ٢٧٦/٣ .

(٢) أغاني ٣٩٩/٢ ، ٤٧/٣ . (٥) أغاني ٣٧٩/١ .

(٣) أغاني ٢٧٣/٨ ، ٢٧٨/٨ وانظر ابن . (٦) أغاني ٣٢١/٨ .

سعد (طبعة أوروبا) ٣٤٣/٨ .

مكة جميعاً حتى فقهاؤهم من مثل عطاء^(١) بن أبي رباح وابن^(٢) جُرَيْج وقضاتهم من مثل الأوقص^(٣) الحزومي . وتبع ذلك موجة واسعة من المرح ، ومن خير من يمثلها شاعر يسمى الدارمي . كان خفيف الروح . وفي كتاب الأغاني ترجمة^(٤) طريفة له تصور فكاهاته ودعاباته . واشتهر في هذا المجتمع المرح فتيات وسيدات شريفات كان لهن أثر بالغ في رقة الأذواق ورهافة الأحاسيس ، مثل : الثَّريَّا^(٥) بنت علي بن عبد الله بن الحارث الأموية ، وكان لها قصر عظيم تُعَقِّدُ فيه ندوات يؤمُّها المغنون والشعراء ، غير من كانوا فيها فعلاً ، إذ كانت الثريا مولاةً للغريص ويحيى قَيْلٍ ومميّة .

ومعنى ذلك كله أن مجتمع مكة كان على غرار مجتمع المدينة حضارة وترفاً ومرحاً ورقة وغناء وعزفاً كل ليلة على أوتار العيذان والطنابير والآلات الموسيقية من كل لون . وأعدّ هذا كله شعراء مكة لأن يجرى جمهور شعرهم في الغزل والحب . وربما كان أهم شاعر مكّي تعلق بالمهجع والمديح عبید الله ابن قيس الرقيات ، إذ اتخذهُ مصعب بن الزبير في أثناء ولايته على العراق شاعره الذي ينافح عن دعوة الزبيريين ضد بني أمية . وبعد أن صار الأمر إلى عبد الملك أصبح من مدّاحيه ومدّاحي أخيه عبد العزيز وإلى مصر . ولكن حتى ابن قيس أكثر شعره في الغزل ، وعلى غراره العَرَجِي . على أن هناك من عاشوا للغزل وحده حتى فاقوا فيه شعراء المدينة على نحو ما هو معروف عن عمر بن أبي ربيعة . ومن طريف ما كانوا يقولون عنه وعن تأثير غزله : « إذا أعجزك أن تُطرب القرشي فغنّه غناء ابن سُرَيْج في شعر عمر بن أبي ربيعة فإنك تُرَقِّصه »^(٦) .

وكل ما قلناه عن تأثير غزل أهل المدينة بالغناء من حيث الكم والكيف والوزن ينصبُّ انصباباً على غزل أهل مكة ، وقد شاع بين الباحثين أن غزل المدينتين جميعاً في هذا العصر غلب عليه الطابع المادي الصريح ، بل لقد

(٥) أغاني ١/١٢٢ ، ٢٠٩/١ وما بعدها

وفي مواضع متفرقة .

(٦) أغاني ١/٢٨٤ .

(١) أغاني ١/٢٥٧ .

(٢) أغاني ١/٤٠٨ .

(٣) أغاني ٢/٣٦٧ .

(٤) أغاني ٣/٤٥ .

استولى عليه استيلاءً بحكم ما أُتيح للمجتمع فيهما من ترف ومن حرية . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ذلك فنظن أن الشعراء تهادوا في صراحتهم إلى حد الإفحاش ، فالصراحة شيء والفحش شيء آخر . ومن المؤكد أن غزل مكة عند عمر بن أبي ربيعة وأضرابه أقل صراحة وحرية من غزل المدينة عند الأحرص وأقرانه ، إذ كانت موجة اللهو في المدينة أكثر حِدَّةً . وينبغي أن نلاحظ أن هذا الغزل الصريح عند الأحرص وعمر ونظرائهما كان يرافقه غزل عفيف عند الفقهاء والزهاد من أمثال عروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة في المدينة وعبد الرحمن بن أبي عمار الجشسي في مكة ، وغزلهم جميعاً يمتاز بالنقاء والطهارة وسمو العاطفة .

وما لا شك فيه أنه كانت تسقط من غناء المدينتين الكبيرتين بالحجاز وما شاع فيهما من غزل آثار مختلفة في بقية مدن الحجاز ، فمن ذلك ما يروى عن العترجي الشاعر المكي من أنه كان ينزل كثيراً في أودية الطائف ، وكان يلزمه مغن يسمى الفيند^(١) . ويلقانا هناك شاعران كلنا بالغزل هما محمد بن عبد الله النميري ويزيد بن ضببة . ويذكر أبو الفرج أن المغنين في وادي القرى كانوا يفدون على مكة يتعلمون فيها الضرب والغناء والعزف ، ومن أشهرهم عمر^(٢) الوادي .

٢

نجد وبوادي الحجاز ونزوح قيس إلى الشمال

إذا كنا لاحظنا تحضر مدن الحجاز وخاصة المدينة ومكة فإن نجداً وبوادي الحجاز قلما سقط فيهما من الحضارة شيء ذو بال ، إذ استمرت القبائل فيهما تعيش على الرعي وطلب الكلاء ، فهي تعيش — كأسلافها في البجاهلية — معيشة متبدية فيها غير قليل من الشطّاف .

وفي هذه المعيشة ظلت المنافسات القبلية على المراعي ، وظل تربص القبائل

(٢) أغاني ٧/ ٨٥ .

(١) أغاني ١/ ٣٩٣ .

بعضها ببعض ، وإن كان من المحقق أن ذلك لم يأخذ الشكل الحادّ الذي كان عليه القوم في الجاهلية ، بسبب نهى الإسلام عن الأخذ بالثأر وتحول حقه من أيدي الأفراد إلى أيدي الدولة ، وكان ولاية بني أمية في نجد وبوادي الحجاز يقظين ، وكانوا إذا تفاقم الشر من بعض الأفراد زَجَّوْا به في السجون . غير أن بقية من الشر والشجار بقيت ، وهي بقية استتبع ظهور بعض قُطَّاع الطرق من أمثال طَهْمَان^(١) بن عمرو الكلابي الشاعر ، كما استتبع غير قليل من شعر الفخر والمجاء ، على نحو ما نجد في مهاجاة^(٢) شبيب بن البرصاء الذُبْيَانِي لعقيل بن عُلْفَة وأرطاة بين سُهَيْبَة ، ومهاجاة^(٣) ابن مَيْيَاة الذُبْيَانِي للحكم الخُضْرِي .

ودفع شظف المعيشة في هذه البيئة البدوية كثيرين من شعرائها للوفود على الخلفاء في دمشق والولاية في مكة والمدينة والكوفة والبصرة يطلبون نوالهم ، ومن ثمّ كانوا يترددون بين البدو والحضر . ولا نُسعد إذا قلنا إن شعراء شرق الجزيرة من ربيعة وقيم وعبد القيس كانوا دائمى الارتحال إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد وكان منهم من تَقَدَّف به رحلاته إلى خراسان .

ومرّ بنا أن كثيراً من العرب المتبدين ارتدّوا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومنعوا الزكاة ، وقد قضى أبو بكر على هذه الرّدّة ، واستجابت الجزيرة لهذا الغرض الديني راضية مرضية . ويظهر أن بعض عُجَمَال الصدقات كان يقسو في جمعها على العرب أحياناً ، ومن ثمّ ارتفعت أصوات في هذا العصر الأموي تشكو منهم شكوى مرة^(٤) .

ولا بد أن نلاحظ أن نشاط الشعر في نجد وبوادي الحجاز لهذا العصر كان أقل مما كان عليه في الجاهلية ، بسبب ما قدمنا من إمامة الإسلام لفكرة الأخذ بالثأر التي سَعَتِ الشعر والشعراء قديماً وما انطوى فيها من عصبية ، وحقاً هو لم يُمت ذلك نهائياً ولكنه قلل من حدّته . ومن أسباب ضعف نشاط الشعر أيضاً كثرة من هاجر وا في الفتوح شرقاً وغرباً ، إذ كانت عشائر ترحل

(١) انظره في أخبار الصوص للسري ١٠٠ . (٣) أغاني ٢/ ٢٩٨ .

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٧١/ ١٢ (٤) انظر جمهرة أشعار العرب (طبع المطبعة وما بعدها .
الرحمانية) ص ٣٠٥ .

بِرُمَّتْهَا . على أن هذا أحدث حزناً في نفوس كثيرين سبق أن وصفناه في عصر صدر الإسلام .

ضَعُفَ نشاط الشعر إذن في هذه البيئة البدوية ، ولكنه إذا كان ضعفاً في مجال الفخر والمجاء فإنه قوى قوة واسعة في مجال الغزل ، إذ تكاثرت شعراؤه كثرة مفروطة وتكاثرت قصصه الغرامية ، وخاصة في بنى عُدْرَةَ وبنى عامر . وقد ترجم أبو الفرج في أغانيه لكثيرين منهم مثل جميل وعُرْوَةَ بن حزام وقيس ابن ذَرِيح ، ووقف طويلاً عند مجنون ليلى وشكَّ في حقيقته ، وهو بصوّر بما يضاف إليه من قصص كثير كيف أصبح هذا الغزل شعبياً ، وكأنَّ عرب نجد وبوادي الحجاز أفرغوا فيه وفي أفرادهِ صور البطولة التي فقدوها في حياتهم الإسلامية بسبب خمود حروبهم الداخلية .

وغزل هؤلاء النجديين من أروع صور الغزل العربي ، لما أشاعوا فيه من نبل وسمو وطهارة ونقاء . وعادةً ينسب الأدباء والمؤرخون إلى بنى عُدْرَةَ ، لكثرة ما أنتجت فيه ، فيقولون غزل عُدْرِي وهو غزل يسمح عليه الإسلام وما أحاط به المرأة من جلال ووقار وما حرّم من الآثام ظاهرةً وباطنة . وكان مما ساعد عليه شعور الحزن الذي وصفناه في غير هذا الموضع والذي كان يجلل أطراف الجزيرة لمن هاجروا منها عن عشائريهم وأهليهم ، ودائماً يَصْطَقِي الحزن النفس وينقيها ويعدّها حين تتحدث عن الحب أن تَشْجِي حَقّاً وأن تؤثر في النفوس تأثيراً بالغاً .

وإذا تركنا نجداً وبوادي الحجاز إلى أطراف الجزيرة الشمالية على حدود الشام والجزيرة وجدنا كثيراً من عشائر قيس وبطونها وخاصة من كلاب وعامر وسُلَيْم تترجح إلى الشمال فتزاحم قبيلة كلب وأخواتها اليمنية في الشام وقبيلة تغلب في الجزيرة . ويكون ذلك سبب خصام قبلي واسع ، تصطدم فيه المصالح الاقتصادية في الرعَى وغير الرعى كما تصطدم المصالح السياسية . فقد كانت كلب وأخواتها اليمنية مواليةً لبنى أمية ، وكذلك كانت تغلب ، فكان طبيعياً أن تقف قيس في الصفوف المعادية حين تواتبها الفرصة . ولم تلبث الفرصة أن سَنَحَتْ حين بدا انهيار بنى أمية عقب وفاة يزيد بن معاوية ودعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة ،

وسرعان ما حطَّبت قيس في حبَّله ، معلنة ثورتها على الأمويين تحت إمرة الضحاك بن قيس في الشام وزُفر بن الحارث الكلابي في قرقيسيا بالجزيرة . وتوالى الأحداث واتفق الأمويون وقبيلة كلب بزعامه ابن بِسْحَدَل على مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة . وثارت قيسُ الشام ، وأوقعتُ بها كلب وقبائل قضاة ومن انضم إليهم من تغلب هزيمة ساحقة في مَرَجِ راهط ، قُتل فيها الضحاك بن قيس . وتمت البيعة لمروان في الشام ، وتبعته مصر . غير أن قيسَ الجزيرة ثبتت على موقفها بقيادة زفر بن الحارث وانضم إليه عُمَيْرُ بن الحُباب السُّلَمي ، وأخذ عمير يغير غارات كثيرة على كلب في أيام متعاقبة مثل : يوم الغُوَيْر ويوم الهيل ويوم كآبة ويوم الإكليل ويوم السماوة ويوم دهمان^(١) . ووالى قيس غاراتها على تغلب ، ونكَّل بها عمير في غير موقعة ، وخاصة يوم ماكسين^(٢) وكان بين مَن أسرتَه قيس فيه القطامي ، فلما عرفه زفر خلَّى سبيله ، وأعطاه مائة من الإبل ، مما جعل القطامي ينوه بمأثرته عليه طويلاً^(٣) ، ونمضى فإذا تغلب تقتل عميراً سنة ٧٠ في إحدى غاراته عليها بالحشَّاء إلى جانب نهر الرثار . ويثار له زفر في موقعة مَرَجِ الكُحَيْل حيث فتك بتغلب فتكاً ذريعاً .

وكان يكفُّ عبد الملك في هذه الأثناء يده عن قيس الجزيرة رجاء أن تتحول إليه ، وكان الصراع مندلعاً بين المختار الثقفي ومعه أهل الكوفة وبين مصعب بن الزبير ومعه أهل البصرة ، فرأى عبد الملك أن ينتظر رجاء أن يُفنى بعضهم بعضاً ، وانتصر مصعب . ولم يعاجله عبد الملك بالهجوم ، ونراه يفلح في جذب زفر إليه ، حتى إذا أصبح طريقه آمناً اقتحم بحيرة العراق وقتل مصعباً سنة ٧١ للهجرة وأرسل الحجاج إلى عبد الله بن الزبير بمكة ففضى عليه . وبذلك أنقذت تغلب من مخالب قيس ، غير أن بقية بقيت لهذه الحروب الدامية إذ تصادف أن الأخطل دخل على عبد الملك وعنده الجحَّاف بن حكيم السُّلَمي فسأله عبد الملك هل يعرفه ؟ فقال : نعم هذا الذي أقول فيه :

ألا سائل الجحَّاف هل هو نائرٌ بقتلى أُصبيت من مُلَيْمٍ وعامرٍ^(٤)

(١) انظر الأغاني (طبعة الساسي) ١٢١/٢٠ (٣) أغاني ١٢٨/٢٠ .

وما بعدها . (٤) يريد الأخطل اليوم الذي قتلت فيه بنو

(٢) أغاني ١٢٧/٢٠ . تغلب عمير بن الحباب السُّلَمي .

وكان الجحّاف ممن فتكوا بتغلب تحت لواء عمير بن الحباب . وقد ظل
يموج به الغضب والأخطل يشد قصيدته حتى إذا فرغ منها أجابه :

نَعَمْ سوف نبكيهم بكل مهْنَدٍ ونبكى عُمَيْرًا بالرماح الخواطر^(١)

ومضى الجحّاف ، فأغار بقومه بني سُلَيْم سنة ٧٣ على تغلب عند موضع
يسمى البِشْر ، فنكّل بها تنكيلاً فظيعاً ، إذ قتل رجالهم ونساءهم وبسّر بطون
حواملهم . وكان ممن قتله ابن للأخطل . أما الأخطل نفسه فوقع أسيراً . غير
أنه موه على بني سُلَيْم حقيقته وقال : إنه من عبيد تغلب . فأطّله وهم لا يعرفونه .
ولما رأى الجحّاف أنه خرج بذلك على ميثاقه لعبد الملك لحق بأرض الروم
خوفاً منه ، ولكن قيساً ما زالت تتوسل إلى عبد الملك أن يعفو عنه حتى أمّنه .
غير أنه أزمه أن يدفع ديات قتلى البِشْر فلجأ إلى الحجاج فأداها له ، وتألّه
الجحّاف بعد ذلك ونَسَاكَ^(٢) .

ولنما سقنا هذه الأحداث ، لأن العصبية الجاهلية عادت فيها جذّة بين
قيس من جهة وكلب وتغلب من جهة أخرى وعاد معها الثأر ، حتى أصبح
فوق كل شيء ، وحتى أصبحنا نسمع في كل مكان النار ولا العار . واشتطوا
في القتل وسفك الدماء اشتطاطاً ، إذ بقروا بطون الحوامل وقتلوا النساء .

وعودة العصبية القبلية على هذا النحو هيأت في قوة لعودة أشعار الفخر
والهجاء . ففي كل جانب يتصايح الشعراء منذرين خصومهم بالويل والثبور ،
ويفيض الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذري بأشعارهم ، ونجد
من ذلك آثاراً في الطبري ينشدّها مع الأحداث في موقعة مرج راهط^(٣) وغيرها .
وآثاراً أخرى كثيرة في كتاب الأغاني^(٤) . فقد تراص شعراء كلب من أمثال جِوْأَس
ابن القسّطل وعمرو بن الحنّالة ومنذر بن حسان وشعراء تغلب وعلى رأسهم الأخطل .
كما تراص شعراء قيس وعلى رأسهم زفر بن الحارث وعمير بن الحباب وجهم

(١) خطر الريح : اختز في يد فارسيه . (٤) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٨ / ١٢

(٢) أغاني ١٩٨ / ١٢ وما بعدها . وما بعدها و (طبعة الساسي) ١١١ / ١٧

(٣) الطبري ٤ / ١٩٨ . وما بعدها ، ٢٠ / ١٢١ وما بعدها .

القشيري وابن الصنّار المحاربي . وأخذ كل فريق يتريش سهامه من الوعيد والتهديد والتخويف الشديد : فالتهب الهجاء والفخر التهاوبا .

ومضى كثير من شعراء القبائل في هذه الأنحاء بعد أن عاد السلام إلى نصابه يمدحون الخلفاء والولاة طلباً للذوال ، يتقدمهم في ذلك الأخطل والقطامي وأعشى تغلب وأعشى بني شيبان ونابعهم ، وكما كانوا يقصدون الولاة والخلفاء كانوا يقصدون الأجواد من الأمويين وغيرهم .

٣

الكوفة والبصرة

لما أقبل العرب من الجزيرة على العراق يفتحون وينشرون الإسلام واتسعت بهم الفتوح لعهد عمر بن الخطاب رأى أن لا يتخذوا المدن القديمة منازل لهم حتى لا يتلاشوا فيها ، وأمر بئاقب بصيرته أن يُبْنَى لهم معسكران على حدود الجزيرة الشرقية . حتى يظل اتصالهم بالجزيرة ، وحتى لا ينساحوا في البلاد المفتوحة . وهذان المعسكران اللذان كانا مادة الجيوش المحاربة في عصر صدر الإسلام والعصر الأدنى جميعاً سواء في فارس أو في خراسان هما الكوفة والبصرة .

وقد خُطِّطت الكوفة في سنة سبع عشرة للهجرة : ونزلت القبائل اليمنية في شريقها والعدنانية في غريبها ، ولم تلبث أن حُشِدَت حسب أنسابها في سبع خطط . خطة أو سبع لكتانة وخلفائها وحديلة ، وخطة أو سبع لقضاة وغسان وبتجيلة وخثعم وكندة وحضرموت والأزد ، وخطة أو سبع لمدحج وحميز وهمدان وخلفائهم ، وخطة أو سبع لتميم وسائر الرّباب وهوازن ، وخطة أو سبع لأسد وغطفان ومحارب والنّسير وضبيعة وتغلب ، وخطة أو سبع لإياد وعكّ وعبد القيس وأهل هجر الحمراء . ولم يذكر الطبري السبع السابع^(١)

(١) طبري ١٥٢/٣ وما بعدها .

واستظهر ما سينيون في كتابه عن خطط الكوفة أنه كان لقبيلة طي* ، وربما شركتها فيه قبيلة بكر ، إذ لا نجد لها هي الأخرى ذكراً في الأسباع السالفة . وظلت هذه الأسباع حتى عصر زياد بن أبيه وقد جعلها أربعة ليدخل القبائل بعضها في بعض .

وكان يَكْتَفُ الكوفة من الشرق زروع ونخيل وأشجار يسقيها الفرات ، وكان في ظاهرها من الغرب الحيرة والنجف والخورنق والسدير والغريبان ومتنزهات وديرة كثيرة^(١) ، وبمجرد أن نزلها العرب نزلها معهم بقايا الجيوش الساسانية التي انضمت إليهم ، ويقال إنهم بلغوا أربعة آلاف ، وكان نقيبهم يسمى دَيْلَمَ ، فنسبوا إليه ، وسُمُّوا حمراء ديلم^(٢) ، ونزلها معهم أيضاً رقيق الحروب التي خاضوها ، وأخذ يتوافد كثير من النبط والتجار والصناع .

وقد اتخذ على بن أبي طالب الكوفة حاضرة له حين ذهب إلى حرب الخارجين عليه : بينما نزلت السيدة عائشة وطلحة والزبير في البصرة ، ووقعت بين البلدين موقعة الجمل المعروفة وفيها علت كفة على والكوفة . ويدخل أهل البصرة في طاعة على ، ولكن تظل منذ هذا التاريخ في صدورهم إحساناً لأهل الكوفة . ويخرج على بجيشه إلى لقاء معاوية في صفين ، وتحدثم المعركة بينهما ويشتد أوارها كما يشتد أوار الشعر بين الفتنين المتحاربتين . ويكون التحكيم . ويخلص الأمر لمعاوية فيولّي على الكوفة المغيرة بن شعبة . ويأخذها بالرفق الشديد ، حتى مع من كانوا يظهرن فيها التشيع ولا يخفونه من أمثال حُجْر بن عدى ، وكذلك كان يصنع بالخوارج ، وقد كفاه أهل الكوفة أمر المستورد ابن عُدَّة الخارجي حين ثار عليه ، فأنبروا لقتاله وقضوا عليه وعلى من تبعه وهم يتناشدون الشعر ويرمونه وجماعته^(٣) به . ومات المغيرة سنة ٥٠ للهجرة فخلقه على الكوفة زياد بن أبيه ، فأخذها أخذاً شديداً ، ولم يلبث أن ضيق الخناق بها على حُجْر بن عدى وأصحابه من الشيعة ، واضطّر حجر وبعض من شابعه إلى حمل السلاح ، ف وقعت مناوشات بينه وبين أصحاب زياد ،

(١) انظر مادة كوفة في معجم البلدان لياقوت .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري (طبعة المطبعة) (٣) طبري ١٤٣/٤ وما بعدها .

المصرية بالأزهر) ص ٢٧٩ .

ارتفع فيها صوت الشعر^(١) ، وتغلب زياد عليه وعلى المتمردين معه ، وأرسله في نفر منهم إلى معاوية ، فقتله في ستة من أصحابه . وكانت تلك أول شرارة أوقدت النفوس في الكوفة ضد الحكم الأموي ، واعتبر الشيعة حُجراً وأصحابه شهداء ، وأخذوا يتفجعون عليهم^(٢) . وتمضى الكوفة تحت حكم زياد مبطنةً معارضة شديدة ، إذ أخذ كثير من أهلها يصطيغ بصبغة التشيع لعلّ وبنيه . ويتوفى زياد في سنة ٥٣ ويخلفه على الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد ، ثم الضحّاك بن قيس الفهري ثم عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي ثم النعمان بن بشير ، ويتوفى معاوية ويخلفه ابنه يزيد ، فيضمها إلى عبيد الله بن زياد وإلى البصرة . ويأبى الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير مبايعة يزيد بالخلافة ويخرجان من المدينة إلى مكة ، فيكاتب أهل الكوفة الحسين ، ويرسل إليهم بآب بن عمة مسلم بن عقيل فيبايعه اثنا عشر ألفاً منهم . ويخرج إليهم الحسين ، ويعلم في الطريق أن ابن عمة اضطرّ إلى قتال عبيد الله بن زياد وأن أهل الكوفة اتخذوا عنه وأسلموه إلى عبيد الله ، فقتله ، وكان أول قتل لبني هاشم صلبت جثته ، يعلم الحسين بذلك كله ، ولكنه يصمم على المضى إلى غايته فيُقْتَلُ وهو يقاتل جنود عبيد الله بن زياد بكربلاء على نهر الفرات في العاشر من المحرم سنة ٦١ للهجرة . وتتطور الحوادث . فيتوفى يزيد بن معاوية ويضطرّ عبيد الله بن زياد أن يغادر البصرة إلى دمشق . ويتلاقى الشيعة بالتلاوم والتندم على تقصيرهم في حق الحسين ونفورهم عن نصّرتهم ، ويرون أنه لا يغسل عارهم إلا حرب من قتلوه وإلا التوبة مما فرط منهم ، فسُعموا التّوابين ، وولّوا أمرهم سليمان ابن صُرَد . ولم يلبثوا أن جمعوا آلة الحرب واتجهوا إلى الشام يريدون أن يثأروا للحسين ، فالتقوا في عَمَيْنَ الوردة (رأس العين) في وسط الجزيرة بجيش أموي على رأسه عبيد الله بن زياد ودارت الدوائر عليهم ، وسقط سليمان في المعركة ، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٦٥ . وعادت فلول الجيش الشيعي إلى الكوفة ، وانتهز المختار الثقفي الفرصة ، فدعا لمحمد بن الحنفية ، وانضوى الشيعة تحت لوائه ، واستطاع أن يستخلص الكوفة من وإلى ابن الزبير ويطرده منها ، وأخذ

بنكّل بمن كان هواهم مع بنى أمية ، مما جعل شعراءهم خشية بطشه يمدحونه هو وإمامه ، وكأنهم من شيعتهم على شاكلة قول عبد الله بن همام السّلولي^(١) :

دَعَا يَا لثَارَاتِ الْحُسَيْنِ فَأَقْبَلْتُ كَتَائِبُ مِنْ هَمْدَانٍ بَعْدَ هَزِيعٍ^(٢)
وَأَبِ الْهُدَى حَقًّا إِلَى مُسْتَقَرِّهِ بِخَيْرِ إِيَابِ آبِهِ وَرَجُوعِ
إِلَى الْهَاشِمِيِّ الْمُهْتَدِي الْمُهْتَدِي بِهِ فَنَحْنُ لَهُ مِنْ سَامِعٍ وَمُطِيعِ
وَلَمَّا اسْتَجْمَعَ الْأَمْرُ لِلْمُخْتَارِ أَعَدَّ جَيْشًا بِقِيَادَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْثَرِ لِحَرْبِ أَهْلِ
الشَّامِ ، فَالْتَقَى فِي سَنَةِ ٦٦ بِجَيْشٍ عَلَيْهِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ فِي «خَازَر» بَيْنَ الْمَوْصِلِ
وَالرَّبْلِ ، وَدَارَتْ الدَّوَائِرُ عَلَى جَيْشِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَسَقَطَ فِي الْمَعْرَكَةِ . وَيُولَّى ابْنُ
الزُّبَيْرِ عَلَى الْبَصْرَةِ أَخَاهُ مُصْعَبًا سَنَةَ ٦٧ وَتَنَشَّبَ الْحَرْبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُخْتَارِ ،
وَتَعْلُو كِفَّةَ مُصْعَبٍ ، فَيُقْتَتَلُ الْمُخْتَارُ وَتَدْخُلُ الْكُوفَةُ فِي طَاعَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ .

ونعشى بعد ذلك ، فنجد الكوفة تشارك في ثورة ابن الأشعث لعهد الحجاج
وهي ليست ثورة شيعية ، وإنما هي ثورة أهل السيادة والشرف في الكوفة على
بنى أمية ، فقد كانت الكوفة مستقر البيوتات العربية^(٣) . وكان سادة هذه
البيوتات وأشرافها يمتعضون من ظلم ولاية بنى أمية لهم وأخذهم بالعنف والقسوة
وخاصة الحجاج ، وأُتيحت الظروف لواحد منهم هو ابن الأشعث أن يعلن الثورة
على الحجاج بل على الظلم كله ، ومن ثم دعا لنفسه بالخلافة ، وانضم إليه
كثير من الموالى والقرّاء . ونازله الحجاج في وقائع كثيرة أهمها وقعة دير الجماجم
وانتصر عليه . وهرب ابن الأشعث إلى فارس ، وأوغل في هروبه . حتى وصل
إلى ملك الترك مستجيراً ، وقُتِلَ أخيراً .

وما زال شيعة الكوفة ينتظرون الإمام العلوي الذي يخلصهم من الأمويين
وظلمهم ، حتى ظهر بينهم زيد بن علي بن الحسين ، ودعا لنفسه بالخلافة
منشئاً نظرية شيعية جديدة نُسبت إليه ، هي نظرية الزيدية . وما زال به شيعته
يستعدونه على بنى أمية ويدعونه للخروج ، حتى خرج في سنة ١٢١ وما كاد

(١) طبري ٥١٠/٤ .

(٢) المزيم : نحو ثلث الليل .

(٣) من بيوت الشرف الطريقة في الكوفة بيت

زراعة بن عدس التميمي وبيت الأشعث بن قيس

الكندي وبيت حذيفة بن بدر الفزاري وبيت

ذي الجدين الشيباني .

القتال يستحرّ بينه وبين جند يوسف بن عمر حتى انفضوا عنه إلا قليلا منهم ثبتوا معه حتى قُتلوا عن آخرهم ، وقُتل زيد ، وصُلب بسوق الكُناسة في الكوفة . وهرب ابنه يحيى إلى خراسان ، وخرج بناحية الجوزجان ، وانتهى في سنة ١٢٥ إلى نفس المصير .

واعل في كل ما قدمنا ما بوضح كيف أن الكوفة كانت موئل الشيعة في هذا العصر وأن سادتها الذين لم يعتنقوا التشيع كانوا يكتنون بغضاً لبني أمية وحكمهم . ولم يكن للخوارج شأن مذکور في الكوفة ، ومع ذلك نجد لهم فيها شاعراً مشهوراً هو الطّبري مّاح . وكان كثير من أهلها ينصرف عن هذه المعارضة السياسية إلى الزهد وتقوى الله . وكان بجوارهم من يقبلون على اللهو والخمر ، أمثال الأقيّش الأسدي ، وتكاثروا بأخرة من العصر على نحو ما هو معروف عن مطيع بن إياس وحلبته .

ولم تتورط الكوفة في العصبيات القبلية ، ولذلك كان حظها في شعر الفخر والهجاء ضعيفاً ، وليس معنى ذلك أن الهجاء انحسر عنها ، فقد أخرجت شاعراً من أكبر المهجّين في العصر هو الحكم بن عتبّال . وقد مضى كثير من شعرائها يُعنى بمدح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وكان منهم من يتعصب لبني أمية تعصباً شديداً مثل عبد الله بن الزبير الأسدي .

وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة وجدناها تخطّط حوالى سنة ست عشرة للهجرة معسكراً للجيش المقاتلة في الشرق على مقربة من مصب نهر دجلة بين إقليم البطائح الذي تكثرت مستنقعاته وشاطئ خليج العرب ، وقد روعى فيها كما روعى في الكوفة أن تكون على حافة البادية . وسرعان ما توزعت القبائل خططاً ، خمساً كبيرة : خطة لقيم وخطة لعبد القيس وخطة لأهل العالية وخطة لبكر وخطة للأزد . وكانت الين تلوذ بخطة الأزد بينما لاذت عشائر من أسد والنمر بن قاسط ببكر . ولأهل هجر بخطة عبد القيس . ولأدت ضبة والرباب بخطة نعيم . وقد أقاموا بجانبها سوقاً كبيرة . هي سوق المربد ، وقد تحولت في هذا العصر إلى سوق أدبية يتناشد فيها الشعراء أشعارهم ، ولكل شاعر حلقة .

ونزلها مع العرب كثير من الرقيق الفارسي الذي جلبوه من الحروب ، كما

نزل معهم فريق كبير من جيوش يزدجرد خرج عليه وقاتله مع المسلمين ، وهو المعروف باسم الأساورة . وقد دخل في حلف تميم ، ودخل أيضاً في حلفها نفر من الهنود هم المعروفون باسم الرط والسيابجة والإندغار ، ونزل أيضاً بالبصرة جماعة من الأصهبانيين وأخرى من الحبش^(١) . وكان وقوع البصرة بالقرب من خليج العرب مهياً دائماً لأن ينزلها كثيرون من الإفريقيين والهنود ، كما كان مهياً لازدهار التجارة بها . وكانت الزراعة مزدهرة بها هي الأخرى ، ولا سيما زراعة النخيل بفضل النهرات الكثيرة التي اشتقَّت من دجلة ، وخاصة نهري الأبلَّة ومعدل .

وأخذ نزلها من العرب المجاهدين في سبيل الله ومن انضم إليهم من الأساورة يُشخَّنون بقيادة الأحنف بن قيس التيمي لعهد عمر بن الخطاب في أرض فارس وتغلغلوا إلى خراسان ، وتتابع الفرس على الصلح فيما بين نيسابور وطخارستان^(٢) . وولى البصرة لعهد عثمان عبد الله بن عامر فدفع الجيوش البصرية إلى سجستان وعامة خراسان^(٣) . ثم كانت غتنة عثمان وبيعة على ، فانضم كثيرون من أهل البصرة إلى السيدة عائشة وطلحة والزبير ، وانزوى الأحنف بقومه تميم عنهم^(٤) ، ونسبت موقعة الجمل ، وأسلمت البصرة لعلى ، يتقدَّم صفوفها الأحنف . وحاربت معه بيصفيين ، وظلت والية له إلى وفاته .

وتدخل البصرة في العصر الأموي . وراها تُدْعَى لمعاوية وابنه يزيد ، بينما تأخذ في اجتراح العصبيات القبايلة القديمة ، وكان مماهياً لذلك قيام حلفين كبيرين بها . هما حلف تميم وقيس وحلف الأزدي وبكر وعبد القيس . وبذلك تكتلت قبائلها في حلفين كبيرين ، وأوعر صدور الحلف الأول كثرة المهاجرين من أزد عُمان إلى البصرة . ونرى زياد بن أبيه يستغلُّ هذه العصبيات في توطيد سياسته بالبصرة ، إذ أخذ يضرب القبائل بعضها ببعض .

ومعنى ذلك أن البصرة لم تُشغَلْ بخصومة شيعية على نحو ما شغلت الكوفة ،

(١) انظر في تخطيط البصرة ومن نزحها فنوح

البلدان لابلاذري ص ٣٤١ وما بعدها والطبري

(٢) طبري ١٨٩/٣ - ٢٢١ - ٢٤٤ .

(٣) طبري ٣٥٨/٣ وما بعدها .

(٤) طبري ٥١٠/٣ - ٥١١ .

والفرزدق ٧٣٧ .

فقد كانت كثرة أهلها عثمانيّة الهوى ، إنما الذى شغلها حقاً هو الحصومة القبلية وما طوى فيها من عصبيات ، وقد كان بها كثيرون من الخوارج ، غير أن زياداً أمعن فى الضرب على أيديهم . ونراه يختار من أهلها خمسة وعشرين ألفاً ومن أهل الكوفة مثلهم ، ويُخرجهم يأسرهم إلى غزو خراسان^(١) ، حتى يتخلص من عناصر الشعب فى البلدتين .

وتبعه ابنه عبيد الله فى سياسته من ضرب القبائل بعضها ببعض والتشديد على الخوارج . ويتوفى يزيد بن معاوية ، وتضطرب البصرة ، ويباع كثيرون منها ابن الزبير ، ويُضطرّ عبيد الله أن يرحلها إلى دمشق . ويستولى مسعود بن عمرو سيد الأزد على قصر الإمارة والمسجد بالقوة ، يشدُّ من أزره قبيلته وبكر وعبد القيس ويصعد المنبر يخطب فى الناس ، فتغضب تميم وتهجم عليه مع أحلافها من الأساورة ، فتُنزله من فوق المنبر وتقتله . وينشب القتال بين الأزد و تميم طلباً للتأثر ، ويتدخل الأحنف ويستطيع بحسبته أن يعيد السلام بين القبيلتين نظير دية كبيرة يؤديها للأزد هو وقبيلته ، ولكن العداوة تستمر متأججة بين الفئتين طوال العصر .

وتتبع البصرة ابن الزبير . ويولّى عليها أخاه مصعباً ، فيحارب المختار الثقفى فى الكوفة كما أسلفنا ، ويقضى عليه قضاء مبرماً . ويحارب الأزارقة ، ويوجه لاهم المهلب وغيره من القواد ، ويوقعون بهم هزائم عنيفة . وتنشب ثورة صغيرة للزنج فيُجهز عليها .

وتعود البصرة إلى الخضوع لبني أمية عقب مقتل مصعب ، وهى تَغلى بالعصبيات القبلية . ووليّها الحجاج الثقفى لأكثر من عشرين عاماً ، وفى عهده عملاً شأن قيس لتعصبه لها ، وكان أكبر شخصية بين أبنائها . فجئحت إليه وجنح إليها ، وخاصة أنه احتاج تأييدها له فى الثورات الصغيرة التى كانت تنشب من حوله مثل ثورة قبيلة عبد القيس بزعامة ابن الجارود وثورة الزنج . وكان طبيعياً أن يكون بين أفراد حاشيته كثير منها . وأخذ تعصبه لها يقوى مع الزمن ، فإذا هو يعزل أبناء المهلب عن خراسان ويولى عليها قتيبة

ابن مسلم الباهلي . ونراه يولّى على الجيوش الغازية في المهند محمد بن القاسم الثقفي .
ومعروف أنه كان يُنِيب عنه في حكم البصرة الحكم بن أيوب الثقفي . وولّى
على أصبهان خنّته مالك بن أسماء الفزارى . ومعنى ذلك أن قيساً قوى أمرها في
البصرة لعهد الحجاج . ويتوفى سنة ٩٥ ويتوفى بعده الوليد بن عبد الملك ، ويخلفه
سليمان أخوه ، فيولّى على العراق ثم خراسان يزيد بن المهلب . فيعظم شأن قبيلة
الأزد .

وعلى هذا النحو كان يعظم شأن كل قبيلة في البصرة حين يتولاها شخص
منها ، وكان ذلك يزيد في تنافس قبائلها واشتعال العصبية بينها ، لما يستتبع
من المغامرات السياسية في تولي الوظائف وغيرها . وولى الخلافة عمر بن
عبد العزيز ، فعزل عن البصرة يزيد بن المهلب ، وولّى عليها عدى بن أرتاة
الفزارى ، فعادت إلى قيس مكانتها . ويتوفى عمر ويخلفه يزيد بن عبد الملك ،
فيثور عليه يزيد بن المهلب ، وتتجمع حول لوائه الأزد وربيعة بينما تقف
تميم وقيس بجانب ابن أرتاة . ويظهر مسلمة بن عبد الملك بمجيوش
الشام على المسرح ، ويقضى على ابن المهلب ، ويتبع فلول جيشه هلال بن
أحوز المازني التميمي فيقضى عليها وعلى من بقى من المهالبة قضاء مبرماً . ويولّى يزيد بن
عبد الملك على العراق مسلمة لمدة محدودة ، إذ سرعان ما ولّى عليه عمر بن هبيرة
الفزارى ، وكان يتعصب لقيس تعصباً شديداً ، ولم يُشِرْ عليه الأزد وربيعة
وحدّهما ، فقد أثار عليه أيضاً تيمماً وشاعرها الفرزدق . ويلى الخلافة هشام
ابن عبد الملك ، فيهزل ابن هبيرة ، ويولّى خالداً القسري لنحو خمسة عشر
عاماً ، وكان يتعصب لليمن تعصباً شديداً ، فاضطّر الخليفة آخر الأمر أن
يعزله ويولّى مكانه يوسف بن عمر الثقفي ، وبذلك رفعت قيس رأسها ،
وعادت إلى سابق مكانتها . وممن وليها بعده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز
وكان آخر ولايتها يزيد بن عمر بن هبيرة القيسي .

ونرى من كل ذلك أن البصرة ظلت طوال العصر تعيش للعصبية القبلية ،
ومن ثم كانت المحور الذي دار عليه شعرها ، إذ تحوّل كل شاعر يفخر بقبيلته
مصوباً سهام هجائه لمن يعادونها من القبائل . ولم يقف الشعراء عند الخصومات

بين الحليّفين اللذين تحدثنا عنهما حلف تميم وقيس وحلف الأزد وربيعة ومن انضم إليهما من القبائل اليمنية ، فقد أثاروا ما بين العشائر والبطون من حزازات قديمة وأضافوها إلى ما تكون من حزازات حديثة ، بحيث لم تبق عشيرة إلا ولها شاعرها أو شعراؤها الذين يذودون عنها مفاخرين هاجين ، واتخذ ذلك شكل معارك عنيفة ، على نحو ما نعرف عن معركة الهجاء التي نشبت بين جرير والفرزدق .

ولم تُنسمَّ البصرة شعر الفخر والهجاء وحده ، بل نُسِّمَتْ أيضاً شعر المديح ، فقد تحول شعراؤها إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد بمدحونهم ويأخذون جوائزهم . وقلنا آنفاً إن الحوارج في البصرة كانوا كثيرين ، وقد هيأت هذه الكثرة لأن يظهر من بينهم غير شاعر مثل عمران بن حِطَّان ، أما الشيعة فكانوا قليلين ، ومن ثم لم ينشط الشعر الشيعي بالبصرة ، وكأنها تركته للكوفة كي تبلغ منه كل ما كانت تريد من معارضة الدولة والتشيع للبيت العلوي وبيان حقّه في الخلافة . وإذا كنا لاحظنا في الكوفة أن شعراء كثيرين كانوا يتفوقون في صفوف بني أمية ضد معارضتهم من الشيعة فإن البصرة هي الأخرى كان بها كثير من الشعراء الذين نافحوا عن الحكم الأموي وعلى رأسهم جرير . ويلقانا بين أعاجم البصرة غير شاعر ، وطبيعي أن ينتظموا في صورة الشعر البصري العامة من الفخر والهجاء والمديح ، ومن اشتهروا منهم يزيد بن مفرغ الحميري . ويلقانا أيضاً شعراء يتغنون بالخمير مثل حارثة بن بدر الغداني التميمي ، وإن كان من الحق أن موجتها لم تتسع في البصرة اتساعها في الكوفة ، فقد كانت أكثر وقاراً ، ومن ثمّ فسحّت للزهد وشعرائه من أمثال أبي الأسود الدؤلي .

٤

خراسان

مرّ بنا أن جنُند البصرة هم اللذين مضوا شرقاً في عهد عمر بن الخطاب حتى فتحوا خراسان ، وقد توغلوا فيها لعهد عثمان . فكان طبيعياً أن يحملوا معهم ما أخذت تستشعره القبائل البصرية من العصبية القديمة . وكان مما زادها

صَراوة في نفوسهم أن قوَاد الجيوش المحاربة كانوا يكافأون على انتصاراتهم بإسناد إداراة الجهات التي يفتحونها إليهم ، وكان القائد حين تُسندُ إليه ولاية يخصُّ قبيلته بالعُسنم الأكبر . وكذلك كان يصنع الولاة من قبل الخليفة أو والى العراق ، فانطوت النفوس على موجدة شديدة ، وهى موجدة أدَّت هناك دائماً إلى حروب عنيفة واشتباكات دامية ، كانت تعلق فيها القبيلة كما كان يعلو الثَّار على كل شىء .

وبذلك أصبح العرب بخراسان في نفس المَرْتَف الذى كان عليه أسلافهم في الجاهلية ، فهم يعيشون للمنازعات القبلية والثارات ، وحقاً كانوا يُشغَلون أحياناً بحروب الترك ، ولكنهم كانوا لا يهدءون وينصرفون قليلاً عن حربهم حتى يتحاربوا فيما بينهم حرباً مريرة ، وهى حرب عادت فيها العصبية جَدَّةً .

وقد بدأت هذه العصبية تَسْتَعِر هناك في نفس الوقت الذى بدأ استعارها فيه بالبصرة ، أى بعد وفاة يزيد بن معاوية فقد أخذت الأزْد وأحلافها تحاول أن تستولى على السلطان هناك ، وتصدت لهم قيس وتميم بزعادة عبد الله ابن خازم السُّلَمى القيسى . واستطاع أن يجمع السلطان في يده هناك معلناً ولاءه لابن الزبير ، حتى إذا غلب عبد الملك بن مروان على صاحبه أرسل إليه أن يَدْخُل في طاعته على أن يُطعمه خراسان سبع سنين ، وأبى ابن خازم ، غير أن نائبه في مرو : بكير بن وشاح التميمى ثار عليه ، ولم يلبث ابن خازم أن قُتل . ودخلت خراسان ثانية في طاعة بنى أمية ، وولَّى عليها عبد الملك بكيراً ، ثم ولي أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموى . وضمَّها إلى الحجاج ، فولَّى عليها في سنة ٧٨ المهلب الأزدي بعد قضائه على الأزارقة ، فقدمها يصحبه شاعره كعب الأشقرى الذى طالما أشاد بانتصاراته على الأزارقة . ويلزمه شعراء خراسان يمدحونه ويصفون حروبه مع الترك من أمثال المغيرة بن حَبَّاء التميمى ونهار بن تَوْسعة اليَشْجَرى البكرى وزياد الأعجم مولى عبد القيس . ويتوفى المهلب سنة ٨٢ . فيولَّى الحجاج بعده ابنه يزيد ، وكان شجاعاً مقداماً كما كان بحراً فياضاً . وقد أشاد الشعراء هناك بحروبه في فرغانة وخوارزم وما وراء النهر إشادة رائعة . ويتعرَّضه الحجاج لعصبية الشديدة للأزْد

وأحلافها من اليمن وربيعه ويولّى أخاه المفضل ، وسرعان ما يرى أن يتخلص من المهالبة جميعاً ، فيعزل المفضل ويولّى قتيبة بن مسلم الباهلي في سنة ٨٦ فتعلو كفة قيس ويعظم سلطانها . وكان قتيبة قائداً محنكاً وفارساً مغوراً ، فحصى يفتح في طخارستان وأرض السغد وخوارزم وسمرقند ، والشعراء من حوله يتغنون بانتصاراته . ولم يلبث قتيبة أن سقط وهو في أوج مجده ، وذلك أن سليمان ابن عبد الملك وليّ الخلافة بعد أخيه الوليد ، وكان حائقاً على الحجاج وعمّاله ، وخشى قتيبة على مصيره ، فثار عليه ، وسرعان ما انقضت عنه الأزد وأحلافها ثم تبعهم تميم ، لأنه كان قتل منها نفرّاً من آل الأهم ، وأساء معاملته بطلها وكيع بن أبي سود . وتزعّم وكيع حربته ، وانضمت إليه الأزد ، وكانت مغيلة منذ عزّل المهالبة وانضمت معها قبائل ربيعة كما انضم الموالي بقيادة حسان النبطي ، وأخيراً خذلته قيس إلا نفرّاً من عشيرته باهلة ، فلقى حتفه سنة ٩٦ للهجرة . وولّى سليمان مكانه وكيع بن أبي سود ، فأخذ الناس بالعنف ، فعزله ، وولّى يزيد بن المهلب ، جامعاً له بين خراسان والعراق ، وقد مضى يتّبع سياسة قبلية جامحة ، إذ رفع من شأن الأزد ، وملأ بها الوظائف ، وجعل لها القسط الأكبر في الغنائم . وتوفّى سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز فعزل يزيد وجبسه لتأخره في أداء الفتيّة ، وكان قد بالغ لسليمان في بعض كتبه ، فقال إن الفتيّة في بعض حروبه كان قناطر من الذهب ، وزعم أن خنمسه بعد أن أخذ كل محارب حقه منه بلغ أربعة آلاف ألف وفي رواية ستة آلاف ألف ، فلما طلب منه عمر ذلك ، ولم يستطع أداءه جبسه حتى يؤدي ما عليه للدولة ، ولم يكتف بعزله وحده ، فقد عزل كل ولائه الأزديين ، وبذلك سقط أو هوى نجم الأزد ، وقد ولي عمر على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي . ودخلت في عصر يزيد بن عبد الملك ، وتولاها غير قيسى ، ولا يلبث أن يُظْلَمَ عهد هشام بن عبد الملك ، وفيه تصبح تابعة لخالد القسري وإلى العراق ، وكانت فيه عصبية شديدة لليمن ، فارتفع شأن الأزد . ونراه ينب عليها أخاه أسداً سنة ١٠٥ وكان يحاكيه في سياسته ، فالتهمت العصبية القبلية التهاّباً ، وامتشتت الحسام الكتلتان الكبيرتان تميم وقيس من جهة والأزد وأحلافها

من جهة أخرى وقعت بينهما وقعة معروفة باسم وقعة البروقان ببلخ سنة ١٠٦ وتوالت بينهما الوقائع ، وعُزل أسد سنة ١٠٩ ووليها الحكم بن عوانة الكلبي ولم يلبث أن عُزل ووليها أشرس بن عبد الله السَلَمي القيسي ، وخلفه عليها الجعيد بن عبد الرحمن المُرِّي سنة ١١٢ وعُزل عنها في سنة ١١٦ وخلفه عاصم بن عبد الله الحلالى. وفي عهده نشبت ثورة الحارث بن سُرَيْج وكان يرى رأى المرجئة ، كما كان يرى إسقاط الجزية عن الموالى ، واتخذ جهم بن صفوان كاتباً له ، وهو أشهر متكلمي هذه الفرقة . واستفحلت الثورة إذ انضم إليها كثيرون من تميم والأزد والموالى . وما زال عاصم يجاهدهم ، حتى عُزل في سنة ١١٧ وولى مكانه أسد القَسْرى للمرة الثانية فضيَّقَ الخناق على الحارث حتى فر هارباً . غير أن أسداً مات ، وسقط أخوه خالد في العراق ، إذ صرفه هشام عن ولايتها وولّى عليها يوسف بن عمر الثقفى ، جامعاً له معها خراسان ، فولّى عليها نصر بن سيار ، وفي عهده اشتدت العصبية اشتداداً مروّعاً واشتد معها الشجار والقتال في كل مكان ، وظهر الحارث بن سريج على مسرح الحوادث ثانية وقُتل . وأخيراً يظهر أبو مسلم الخراسانى . وعبنا يصيح نصر بن سيار بجنوده أن يتداركوا الأمر^(١) وتكون نهاية بنى أمية .

وفيفض تاريخ الطبرى بأشعار الشعراء في هذه العصبية التى احتدست هناك وفي وصف حروب العرب والترك . ولعل من الطريف أن نعرف أن الشعر نشط في خراسان نشاطاً عظيماً ، إذ كانت الكثرة من العرب هناك مضرية ، وحيثما وجدت المضرين وجدت الشعر ، وكانت الأحداث كثيرة ، فألهمت غير شاعر بالشعر الرائع . ومن أهم شعرائهم زياد الأعجم وكعب ابن معبدان الأشقرى ونهار بن توسعة وثابت قطنىة والمغيرة بن حَبْشَاء . ولعل من الطريف أن نعرف أن مَن هُؤلاء الشعراء مَن كان فارساً مقداماً مثل ثابت قطنىة وكعب بن معبدان ، وكان من هؤلاء الشعراء الفرسان من يقع في حب بعض نساء الترك والديلم وفتياتهم ؛ فيتغزل بهن ، على نحو ما نرى عند أبى جليدة الشكرى^(٢) ، وأعشى حمدان^(٣) . وكان بين المحاربين كثيرون يحنون إلى ديار

(١) طبرى ٣٦/٦ وما بعدها والأخبار الضوال (٢) أنانى (دار الكتب) ١١/٣٢٥، ٣٢٦.

للدينورى ص ٣٦٠ . (٣) أغانى ٣٤/٦ وما بعدها .

قومهم في الجزيرة، وخاصة حين يُلَمُّ بهم وهن ، ويظنون أنهم ميتون ، وقصيدة مالك بن الريب في مرضه مشهورة^(١). وكان يحدث أحياناً أن يُحقق بعض البدو بالجزيرة العربية في حبُّهم ، فيرحلوا إلى الثغور ، وينظموا شعراً يضمنونه حبهم اليائس، وهو شعر يفيض باللوعة الممضة على نحو ما نجد عند الصمّة القشيري^(٢) الذي مات غازياً بطبرستان .

٥

الشام

لا يكاد يُقاس الشعر في الشام لهذا العصر إلى ما انبثَّ منه في خراسان والعراق والحجاز ، ومرجع ذلك أن قبائل الشام كانت في جمهورها قبائل يمنية ، وهي لا تبلغ في الشعر والشاعرية ما تبلغه القبائل المضرية ، وأهم شاعر أنبثته بيئة الشام في هذا العصر هو عدى بن الرقاع العاملي ، وهو يتأخر خطوات عن شعراء العراق والحجاز المبرزين أمثال جرير والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة .

على أنه ينبغي أن يلاحظ أن كثيراً من قبائل قيس نزل الشام مع الفتوح ، واصطدمت بمصالحه كما قدمنا بمصالح كلب والقبائل اليمنية ، مما جعل الحروب تنشب بين الطرفين من جهة وأوقد نيران الهجاء والفخر بين شعرائهما من جهة ثانية ، سواء في موقعة مَرَجٍ راهط أو فيما تلاها من مواقع ظلت سنوات . ولكن هذا الشعر نعه طارئاً على الشام ، فلولا وفود هذه القبائل المضرية ما ظهر ولا استطار .

وما يتصل بهذا الشعر الطارئ على الشام شعر الشعراء الذين كانوا يقدون على الأمويين يملحونهم من الحجاز ونجد والعراق والجزيرة . ومن الحجازيين الذين أكثروا الوفود عليهم ابن قيس الرقيبات ونصيب والأحوص وكثير وإسماعيل

(١) أغاني (سأى) ١٦٢/١٩ وذيل الأمال (٢) أغاني (دار الكتب) ٢/٦ وما

ابن يسار النسائي وطُربُج الثقفى ويزيد بن ضَبَّة وأبو العباس الأعمى، ومن النجديين الرَّاعى والعُجَيْر السَّلُولى وأرطاة بن سُهَيْبَة وعقيل بن عُلْفَة وابن مِيَادَة ومن العراق جرير والفرزدق والأخطل ومسكين الدارمى وعبد الله بن الزَّبير الأسدى وأعشى شيبان ونايفهم وذو الرمة .

وهؤلاء الشعراء جميعاً كانوا وافدين ، ولم يستقروا فى الشام ، إنما كانوا يُلْمَتُون بها ، ثم يعودون إلى ديارهم وأهليهم يُجَمِّر الحِقَاب . وربما كان أهم عشيرة اشتهرت بالشعر فى هذه البيئة هى العشيرة الأموية نفسها ، فقد اشتهر من بين أفرادها بنظم الشعر يزيد بن معاوية ، ثم ابن أخته يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد وسنعرض له ولشعره فى موضع آخر .

على أن هذه الأسرة نفسها كانت طارئة على الشام ، ومن ثَمَّ لا نغلو إذا قلنا إن الشعر فيها لهذا العصر كان بعامة شعراً طارئاً . ومن هذا الشعر الطارئ ما كان ينظمه الغزاة فى حروب الروم ، وكانت كثرتهم من عرب الشام اليمنية ، ولذلك لم يكثر الشعر فى هذه الحروب ، غير أن نفراً من المضربين شاركوا فيها ، فجرى الشعر على ألسنتهم وتصايحوا به فى بعض معاركهم ، وبكوا به شهداءهم على نحو ما نجد عند أبى العيال الهذلى حين غزا مع يزيد بن معاوية الروم ^(١) واستشهد ابن عم له يسمى عبد بن زهرة قرناه رثاء حاراً ^(٢) .

وعلى هذا النحو كان الشعر فى الشام لهذا العصر محدود النشاط ، وكان فى جملته طارئاً إما مع قبائل قيس ، وإما مع الوافدين على أبواب الخلافة ، وإما مع البيت الأموى القرشى نفسه ، وإما مع الغزاة الذين كانوا يجاهدون الروم .

٦

مصر والمراكز الأخرى

إذا أخذنا نستقصى مراكز الشعر الأخرى لهذا العصر وجدنا العناصر اليمنية

(١) الإصابة لابن حجر ١٤٣/٧ . ٢٤١/٢

(٢) ديوان الهذليين (طبع دار الكتب)

تغلب عليها ، وهى من حيث الشعر والشاعرية تتخلف عن العناصر المصرية . وقد تصادف أن كان أكثر الفاتحين لمصر وبلاد المغرب والأندلس من العناصر اليمنية ، وأخذت تتقدم وراءهم قبائل منهم ، تستقر فى تلك الديار ، فكان طبيعياً أن لا ينشط فيها الشعر ، وأن يظل خامداً طوال العصر .

ولعل أهم هذه المراكز المتخلفة فى الشعر والشعراء مصر ، وكانت متصلة بالحضارة اليونانية والرومانية قبل الفتح . ومدرسة الإسكندرية بها مشهورة وقد ظلت منارة للعرفان حتى عصر عمر بن عبد العزيز إذ هجرها أكثر أساتذتها إلى أنطاكية . والذى لا ريب فيه أنه ظلت بمصر بقايا كثيرة من الحضارة اليونانية والرومانية . وقد أخذت تنفس فى جو الثقافة الإسلامية العربية ، وسرعان ما ظهرت بها مدرسة دينية على رأسها عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأخذت تهض فى هذا المجال . غير أننا إذا رجعنا إلى الشعر بها وجدناه متخلفاً ، لما قلنا من غلبة العناصر اليمنية على العرب النازلين فيها . وحقاً نجد فيها أشعاراً كانت تُنظم من حين إلى حين فى الأحداث التاريخية واليومية ، وهى مبثوثة فى كتاب الولاة والقضاة للكندى ، ولكن قيمتها الشعرية ضعيفة وأكثر من ينظمونها يُعَدُّون مجهولين لنا ، وربما كان أهمهم ابن أبى زمزمة الذى عاصر عبد العزيز بن مروان فى ولايته على مصر (٦٥ - ٨٥ هـ) وأشعاره المنسوبة إليه لا ترقى إلى أفق شاعر متوسط من شعراء المراكز الأخرى فى الحجاز ونجد والعراق وخراسان .

ومن المحقق أن الشعر نشط بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان ، غير أنه فى جملته شعر وافد ، أنشده بمصر شعراء الحجاز ونجد والعراق ، الذين وفدوا على ابن مروان بمدحونه لأخذ نواله ، وكان بجزاً فياضاً ، وغيثاً مدواراً ، فقصدته الشعراء من كل صوب أمثال كثير وابن قيس الرقيات ونُصَيْب وجميل وأيمن بن خرَيْم وعبد الله بن الحجاج الثعلبي . وبمجرد أن مات عبد العزيز خمد هذا النشاط الطارئ ، إذ لم يعد يفد عليها الشعراء لأخذ الجوائز والعطايا الجزيلة .

فصر لم يكن بها نشاط قوى للشعر فى هذا العصر ، وإذا تركناها إلى الغرب انبسطت أمامنا بلاد المغرب إلى مشارف المحيط الأطلسي ، وكان الشعر بها

أكثر تخلفاً ، لغلبة العناصر اليمنية على من نزلها من العرب ، ولأنه لم يظهر بها
وال على شاكلة عبد العزيز بن مروان ، يترحل إليه الشعراء ويمدحونه . وكذلك
الشأن في الأندلس المفتوحة في عهد الوليد بن عبد الملك ، فقد فتحها قبائل
يمنية ، ومن ثم لم يزدهر الشعر بها ، بل ظل ذاوياً ذابلاً إلى نهاية العصر .

وطبيعي أن يكون النشاط الشعري في اليمن خامداً ، لأنها لم تُجَلِّ فيه من
قديم ، ولأنه لم تضطرم بها العصبية والثورات التي تدلّع ألسنة الشعراء على نحو
ما مرّ بنا في البصرة والكوفة وخراسان ، ومع ذلك فقد كان ينزلها بعض الشعراء
لمديح ولاتها على شاكلة أبي دَهَبِل الحمصي الذي اشتهر بمدح ابن الأزد
المخزومي وإلى ابن الزبير^(١) . وحين ظهر فيها نشاط الخوارج الإباضيين لأواخر
هذا العصر أخذ الشعر يجري على بعض الألسنة . ولكن على كل حال كان الشعر
هناك متخلفاً ، وربما كان خير شعرائها خالد الزبيدي الذي ترجم له ياقوت
في معجمه^(٢) .

(٢) معجم الأدباء (طبع القاهرة) ٢١/١١ .

(١) أغاني (دار الكتب) ١٢٨/٧ .